الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

حديث النور

تحية الحكمة فى ذكرى ميلاد النور المحمدى

للاستاذ حسنى طه شكيبان

الله نور السموات والأرض . . .

وهل فى الوجود كله غير أقباس النور السارية بقدر — فى الأرض وفى السموات — فى أنوار ظاهرة مستعلنة ، وأنوار خافية مستدقة على العقول تراها البصائر والأفئدة .

الله العلى فى ذاته ، الحكيم فى أفعاله ، سرى من قبضته الكون نوراً : فى ملكه وملكوته ، فى أرضه وسمواته ، فى ظاهره وباطنه ، فى مجاليه وتطوراته ، فى قديمه ومحدثه ، وإلى الأبد يمضى الوجود نوراً فيضاً من النور الكلى الأعظم (الله نور السموات والأرض) .

الله العظيم فى ذاته ، الرحمن فى صفاته ، الكريم فى فيوضاته ، تبدى لذاته فى أفعاله ، وتجلى بصفاته فى فيوضاته ، فصور الوجود فى ملك ظاهر وخفى ، وفى ملكوت لا تدركه الأبصار ، ولا تكاد تناله العقول ، والكل فى أحسن تصوير وأروع تقدير ، وأحاطه فى صورة الجمال بنور الرحمة السابغة ، فيضاً من الرحمن الرحيم ، وعطية كريمة من الغنى الحميد : نور السموات والأرض ، ورحمن الوجود وما فى الوجود (على الحقيقة) سواه . . . لأن الوجود ظلال رحمته . . . وأقباس نوره ، وآثار صنعته .

كان الله ولم يكن شىء غيره . . وهو على ما عليه كان . . .

نور على نور ، يهدى الله بنوره من يشاء . . .

نور تبدى لا بذاته ، وإنما ليرفع الأنظار لنوره الأسنى وليربط العقول بالصانع الحكيم ، وليرقى بالقلوب فى ساحات النور العظيم . . الله نور السموات والأرض .

وحيثما حلقت بالأبصار او بالبصائر فأنت أمام نورين . . نور الصورة ونور الحقيقة . . . نور الصورة فى الوجود الذى فاض من أنوار الحق الأعظم رب الوجود .

كل ذرة فى أنوار الوجود تناديك لا تغرك أنوار مفاضة عن النور الفياض ولا تخدعنك أنوار منعكسة عن النور ذى الجلال والبهاء ...

« إنما نحن فتنة فلا تكفر ... » إنما نحن صورة فلا تشغلنك بقلبك الذكى عن المصور الأعظم ذى الجلال والإكرام ... « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

اقباس أنوار الله فى الوجود ...

وفى رحلة النور نرقى من النور الفيض إلى النور الفياض ..

معرفة وحقيقة .. فى علم اليقين وأمام عين اليقين وفى نور حق اليقين بتوفيق الله نور السموات والأرض ...

فماذا ترى البصائر والأبصار ؟ ؟ ؟

كون لاحد له فى مرأى العيون ، ولا نهاية له فى أعين العلم ، ولا حافة له فى عين الحق .. كون حافته — الحقيقة — رحمة الرحمن ولا نهاية لرحمة الرحمن — وسعت رحمتى كل شىء .. ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ...

كون فى أرض وأقمار وكواكب وشموس ونجوم وسدم ومجرات ... قد بلغ من السعة فى الأبصار — أبصار المراصد ١٠٠٠ ألف مليون سنة ضوئية ... وبلغ فى أعين العلم ٧٠ ألف مليون سنة ضوئية ، وفى اتساع مستمر لا يدرى العلم له تعليلا بمقاييسه — غير أنه يعلن : أننا نعيش فى كون لا ندرك له نهاية ، وفى تقدير عظيم لا ندرى معه غاية غير التسليم بالقوة العظمى التى أبدعت والقوة القاهرة التى دبرت ، والقوة الحكيمة التى تمضى بالوجود لغاياته ...

هذا هو كون الأبصار ... ترى هل هو كل الوجود ...

العلوم لا تدرى ، ولكنها تضيف معرفة يقينية من روائع التجربة تثبت أن هذا الكون السيار فى دقته ، والمشرق فى نجومه وشموسه . والمستضاء فى كواكبه وأقماره : مكون من عناصر مكونة من ذرات عجيب أمرها تحمل كل ذرة منها قوانين أكبر مجرة فى الفضاء ، وتخفى كل ذرة من الطاقة الكبرى ما يحير ويدهش ، وتتكون كل ذرة منها من كهرباء سارية فى الكون المادى كله ، تجمدت فى الكواكب ظاهراً وانطلقت فى الشموس ضياء وطاقة .. فما فى الكون المادى غير طاقة محتبسة وطاقة مشعة .. وكلتاهما من النور والضياء على الحقيقة ...

فهو كون من النور والضياء . . ولكنه ليس كل الوجود . . .

وهنا تنطلق أعين البصائر فى رحلة علوية فى الوجود لتشاهد آيات الحكيم فيه فى كون آخر من السموات فى أروع صورة ، وأجل نظام : أنوار من فوق أنوار ما تعرف عنها مقاييس العلم المادى صورة ، ولكنها فى مرأى البصائر شموس باهرة محيطة ... « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ... ... الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . . » « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً » .

« خلق السموات بغير عمد ترونها » . « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما »

نحن إذا أمام أكوان أخرى متسامية من رقائق المادة فى الكون المادى وإن لم نرها بأعين العلم ، ولكنها حقائق الطاقة المنطلقة ، وليست أحاديث الأشعة الكونية إلا دلائل ما يحيط بكون النور والضياء ، من رقائق هذا النور والضياء فى قوة خارقة وفى نفاذ بالغ ، وكلاهما كانا فى الأصل كيانا واحداً رتقاً ففلقهما فالق الإصباح والحب والنوى ، فتسامت السموات بغير عمد ، وتثاقلت النجوم والكواكب بقدر « كل فى فلك يسبحون » ومن النور بدأ كلاهما ، وعلى النور قام كلاهما فى منطق العلم ومقاييسه ... فإن كانت الأرض والكواكب نوراً فأحرى أن تكون السموات رقائق هذا النور الذى تسامى بطبيعته فوق كل حدس وتخمين ، وتبدى بحقيقته لأولى البصائر ، واستعلن بكيانه فى منطق كتاب الكون الأمين :

« الذى خلق سبع سموات طباقا » ، « رفع السموات بغير عمد ترونها » ، « الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن تنزل الأمر بينهن » .

الملك وملكوت الوجود الأعلى :

ومع جلال هذا الكون فى أراضيه ومستوياته السبع السفلى ، وفى سمواته ومستوياته السبع العليا ، وما بينهما فى أكوان — الله أعلم بها — « ويخلق مالا تعلمون »

إلا أنها من الكون المنشور لأجل مسمى ، المطوية فى يوم معلوم لتتبدل أكوانهما إلى صورة أخرى — الحى القيوم أعلم بها فى حكمة لا تتبدل ، وسنة لا تتغير ...

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » ، والأرض جميعاً فى قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » .

ومرجع ذلك لحكمة الدوام على مايشاء الحق الأعظم « كما بدأنا أول خلق نعيده » فيعيده للنور الذى منه بدأ طاقات متشعة ، ويجمعه فى أنوار متعانقة « الله نور السموات والأرض » ، « فالق الحب والنوى » ، « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وذلك الملك غير الملكوت الأعلى الذى يأخذ صفة الدوام والخلود منحة من الحى القيوم ملكوت فى جنات وسعت السموات والأرض ، وفى كل جنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السموات والأرض رقياً وسمواً ، وعند جنة المأوى منها سدرة المنتهى ، ويحيط بالجنات كرسى العظمة ، ويحيط بالجميع عرش الرحمن « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وسع كرسيه السموات والأرض » . « لا إله إلا هو رب العرش العظيم » ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » ، « خالدين فيها أبدا » ، « لا مقطوعة ولا ممنوعة » ذلك ملكوت الخلود يحيط به عرش الرحمن بدون كيف أو تصور من بعد ملك لا يحد ، تحكمه قوانين الحكمة المبدعة فى ستة أيام وأطوار لأجل مسمى ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين » .

فإن كان الملك من أنوار فى الكون المادى . ومن رقائق النور فى السموات السبع فكيف به فى الملكوت الأعلى ؟

« صنع الله الذى أتقن كل شىء » الله نور السموات والأرض .

قيمة الأكوان فى خلائقها :

ومع ما فى هذا الملك والملكوت من استجابة رائعة لرب الوجود : قال تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض » ، « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب . . . » .

« وإن من شىء إلا يسبح بحمده . . » ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها . . ؟ قالتا أتينا طائعين » .

مع ما فى هذه الأكوان من استجابة الطاعة والتسبيح بحمد فاطرها الأعظم . . .

إلا أن جمالها وروعتها فى خلائقها العاقلين الفاقهين حكمة الخلاق المتسامين بقلوبهم إلى حضرة الرحمن « فى مقعد صدق عندمليك مقتدر » .

ولأمر ما خلق خلائقها من روحه ودعاها إليه من عوالمها إلى حضرة قربه وتلك قصة الخلائق من بعد الأكوان .. أكوان النور والضياء ...

آدم والملائكة والجن :

(ا) من فيض أنوار رحمة الله جاء آدم صنعة الله المبدعة لذاته ، آية كبرى بين يديه وسراً أعظم للوجود كله ، ومفتاحاً كريماً لحكمة الله فى الأكوان ، وصورة رائعة لصفات الرحمن فى الوجود : « خلق الله آدم على صورته .. خلق الله آدم على صورة الرحمن » .

(ب) ومن فيض أنوار نعمته أقامه فى أكرم حقيقة ، وأجل كيان فى الوجود :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

(ج) ومن فيض أنوار حكمته ، خلع عليه جلال الخلافة عنه فى الملك ، وأحله منازل كرم فى الملكوت ، مخلوق الله لذاته فى أرضه وسمواته ، وضيفه الكريم فى جنانه ، وصفيه فى حضرته .

« إنى جاعل فى الأرض خليفة .. » « إن إلى ربك الرجعى » .

« والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » « واتخذ الله إبراهيم خليلا » (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) . (لو كنت متخذاً غير ربى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن » .

(د) ومن فيض أنوار علمه أطلعه على صورة الوجود ، وحكمة الوجود ، وأكرمه بنور المعرفة العليا دون خلائقه فى كل الوجود ؛ حتى جلست الملائكة يتلقون منه حكمة الله السارية فى كل الوجود .. (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . ؟ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا : إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ؛ فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض) .

(٥) ومن فيض أنوار روحه تفتح فينا روح الوجود ، ونور الخلود ، ونور التسامى والصعود من فوق كل الوجود . أصفياء مختارين لحضرته : (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعين) .

(و) ومن فيض أنوار صفاته فطرنا ، صورة عليا على جماله الباهر :

(خلق الله آدم على صورة الرحمن ..) (ولكن كونوا ربانيين ..) .

(لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ..) (تخلقوا بأخلاق الله) .

(كونوا مثل أبيكم الذى فى السموات ، فإنه تشرق شمس على الطائعين والعاصين) .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً) .

(كان خلق رسول الله القرآن ..) (.. بالمؤمنين رءوف رحيم) .

(و) ومن فيض أنوار كرمه اختصنا الله بحضرته ، وأضافنا إلى ذاته ، ومنحنا أسرار الوجود ، وسخر لنا كل موجود ، فى ملك وملكوت ، من كل كائن من الجن فما دونهم إلى الملائكة فمن بمثلهم أو دونهم . . اختصنا بفيض ربوبيته الحانية عزة من لدنه فيضا علينا ، فانطلقنا عباده المصطفين الأخيار دون كل العالمين :

(صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . ونحن له عابدون) (وأمرت لأن أكون أول المسلمين .) (فأنا أول العابدين) (وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون) .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا » .

« تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » .

« أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

« فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

(فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص

وخرين مقرنين فى الأصفاد . هـــذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) .

(ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) .

(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) .

قام مستغنيا بذاته قبسا من نور الغنى الحميد : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) .

هذا هو الإنسان مخلوق الله لذاته : من روح الله روحه ، ومن نور فيوضات الله وكرمه وعلمه كيانه وذاته ... الكل مخلوق من أجله وفى خدمته ، وهو اول العابدين فى حضرته .. وصاحب الفيض الأول فى جلوته .

(إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ؛ فسجد الملائكة كلهم أجمعين) .

(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) .

يتبع